

الطفل الذي رسم المطر

حمادة حامد محمود نور الدين

الطفل الذي رسم المطر

في قرية النجع الغربي، اللي الشمس فيها بتسهر أكتر من الناس، كان في ولد اسمه آدم عنده تسع سنين، بيرسم غيمة على حيطة أوضته كل مساء قبل ما ينام.

القرية ما شافتش مطر من تلات سنين. التراب بقى لونه لون العظام، والنخل واقف بسعف ناشف كأنه بيستغيث، والبير اللي في نص الحارة نزلت ميته لدرجة إن الحبل بقى لازم يتطوّل كل شهر. أبو آدم، اللي كان بيضحك كتير زمان، بقى يقعد على المصطبة بالليل يبص للسما من غير ما يتكلم، وآدم كان بيسمع أمه تقول له وهي فاكراه نايم: «السما نسيتنا يا محمود.»

بس آدم ما كانش مقتنع إن السما بتنسى.

بدأت الحكاية في ليلة حر خانقة، لما لقى قطعة فحم ساقطة من موقد أمه، ورسم بها على الحيطة جنب سريره غيمة صغيرة مدوّرة، ليها ذيل خفيف كأنها بتمشي. نام وهو باصص لها، وحلم إنها كبرت وغطّت القرية كلها.

تاني يوم الصبح، لقى حاجة غريبة: الأرضية تحت الرسمة مبلولة، بقعة صغيرة قد كف إيده، والحيطة نفسها جافة، والسما بره صافية زي كل يوم.

قعد يفكر. جدّته، اللي كانت بتعرف تحكي عن زمان، قالت له مرة إن «الحاجات اللي بنحبها بجد بتسمعنا». فقرر آدم يجرب: كل مساء يرسم غيمة جديدة، وكل صبح يلاقي البقعة المبلولة أكبر شوية، والغيمة اللي رسمها امبارح مش موجودة على الحيطة. كأن الحيطة بتاكل الرسومات.

بس الغريب أكتر، إن جارتهم الست زينب قالت له مرة وهي بتنشر الغسيل: «شفت امبارح بالليل غيمة صغيرة قد الكف واقفة فوق سطح بيتكم، وبعدين دابت.» قلب آدم دق بسرعة. الغيم بيطلع من الحيطة! بس لسه صغير، بيذوب قبل ما يوصل للنخيل.

قرر يكبّر الرسم. رسم غيمة أكبر، وبالليل ما نامش، قعد يتفرج على الحيطة في العتمة. وشاف بنفسه: الخطوط الفحمية بتترفع عن الحيطة ببطء، زي البخار، وتتجمع في نقطة، وتعدي من فتحة الشباك زي نسمة هوا. جري على السطح، لقى غيمة صغيرة معلقة

فوق البيت، بيضا ومزنوقة كأنها خايفة. فضل باصص لها ساعة، لحد ما دابت في السما من غير ولا نقطة مطر.



آدم ما زعلش. بس فهم إن الغيمة الصغيرة مش كفاية، والقرية محتاجة غيمة كبيرة، غيمة تملى السما.

الأيام اللي بعد كده كانت صعبة. أولاد الحارة لما عرفوا سرّه — لأن صاحبه فطين قاله بالغلط — فضلوا يضحكوا عليه: «يا رسام، ارسم لنا غيمة تبلل شبشب عمّك!» وأبوه لما شاف الحيطة اتنرفز:

«بتبوّظ الحيط يا آدم؟» بس أمه قالت له بهدوء: «سيبه. الحيطة حيطته.»

وآدم فضل يرسم. كل مساء غيمة أكبر من اللي قبلها، وكل ليلة يطلع السطح يشوفها بتكبر في السما شوية أكتر قبل ما تدوب. إيده اتسودت من الفحم، وعينه بقى فيها سهر، والست زينب بطلت تستغرب لما تشوف غيمة فوق سطحهم.

وفي يوم، قطعة الفحم خلصت. قلب آدم وقع في رجليه، وقعد على المصطبة مكتئب كأن الدنيا ضلمت. جدّته شافته كده، ومن غير ما تسأله عن حاجة، دخلت وطلعت بعلبة كبريت قديمة، جواها تلت قطع فحم صغيرين مخبّاهم من موقد الشتا اللي فات. قالت له وهي بتحطهم في كفه: «كنت حافظاهم ليوم مهم. باين عليه النهارده يوم مهم.» آدم حضن إيدها اللي ريحتها بقسماط ودخان، وحس إن العلبة دي أغلى من أي هدية شافها في حياته.

وفي ليلة، آدم قرر إنها الليلة.

رسم غيمة تملى الحيطة كلها، من السرير للشباك. رسمها تقيلة من تحت، وشكلها زي بطن مليانة مية، وحط تحتها خطوط خفيفة كأنها بتنزل. لما خلص، وقف بعيد وبص لها، وقال بصوت واطي، مش لحد معين: «القرية كلها مستنياكي.»

الليلة دي ما قدرش يفضل صاحي. نام وهو قاعد، وإيده على الحيطة.

صحي على صوت غريب. صوت ما سمعوش قبل كده، بس عرفه فورًا، زي ما الواحد بيعرف ريحة البلد حتى لو رجعلها بعد سنين. صوت نقط مية بتنزل على القرميد.

المطر.

نزل من السرير وجري على الشباك. الدنيا لسه ضلمة، والمطر بينزل تقيل، وريحة التراب المبلول — الريحة اللي القرية نسيتها — داخلة من الشباك تملى الأوضة. سمع باب بيت جارهم يتفتح، وصوت الست زينب بتكبّر، وأبوه بيضحك، ضحكته القديمة اللي

مكنش سمعها من ثلاث سنين، وبتقول لأمه وهو واقف تحت المطر في البيجامة: «السما فاكرة يا حاجة! السما ما نسيتش!»

آدم طلع السطح. الغيمة اللي رسمها كانت فوق القرية كلها، كبيرة وتقيلة وكأنها اتنقلت من على الحيطة بالمللي. مد إيده للسما، ونقط المطر نزلت على كفه، وكان دافي على غير العادة، كأن الغيمة بتقول له: نوّرت.



تاني يوم، القرية كانت مختلفة. الناس بتتكلم في الفرح، والحمار بيرفس في المية، وأبو آدم نزل يشوف البير، والحبل نزل فيه بسهولة لأول مرة من سنين. وآدم وقف قدام حيطته، لقاها فاضية خالص، ما فيهاش ولا خط فحم، غير بقعة مية واحدة على شكل غيمة صغيرة أوي، في النقط اللي كانت إيده عليها وهو نايم.

حط صوابعه عليها، وابتسم.

وبعدها بأسبوع، لما الشمس رجعت تسخن، والزرع اللي اتزرع في المية بدأ يطلع، أمه لقته واقف بقطعة الفحم على الحيطة تاني. بس المرة دي ما كانش بيرسم غيمة. كان بيرسم شمس صغيرة، مدوّرة ودافية، جنب الشباك.

قالته: «وليه يا آدم؟ المطر خلاص نزل.»

قال لها وهو مكمل رسم: «عشان الزرع كمان ليه حاجة بيحبها على الحيطة.»

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.pages.dev